الفصل الثاني

المنظمة الصهيونية

تم طرد اليهود من أرض الشام على يد الرومان وحظر عليهم البقاء في الأرض المقدسة، وتشتتوا نتيجة لذلك في كل أنحاء العالم. خرجوا يبحثون عن المأوى ولقمة العيش في ديار غريبة مشتتين إلـى مجموعـات صـغيرة أو أفراد. منهم من توجه إلى الشرق، وآخرون إلى شمال أفريقيا، بينما حل بعضهم في البلاد الأوروبية. وكمـا هـو متوقع لكل مشرد أو مطرود من مكان سكنه، لم تكن الحياة سهلة ولا الطريق إلى الاستقرار ممهدة، وكان علـيهم أن يواجهوا الكثير من المعاناة والآلام والضياع.

توجه أغلب اليهود للسكن في المدن الكبرى أو بالقرب منها وذلك سعيا وراء الأعمال التي غالبا ما تكون متـوفرة في التجمعات السكنية الكبيرة. لم يكونوا أصحاب أراض زراعية ولم تكن ظروف الإنتاج متطورة أصلا ليكـون هناك من القدرة على البدء بأعمال استثمارية وإنتاجية. كان عليهم أن يسعوا بداية إلى العمل الشاق قليل الفائـدة، وأن يتحملوا شظف العيش وضنك الحياة. لم يكن من المعروف عدد اليهود في تلك الحقبة التاريخية، لكنـه مـن المتوقع أن عددا منهم قد تخلى عن يهوديته إذا كان في ذلك نوعا من الخلاص من بعض المتاعب.

أخذ اليهود يشقون طريقهم في الحياة في مختلف المناطق التي تواجدوا وركزوا على نشاطات حيوية مثل التجـارة والصناعة والعلم والتي تعتبر ميادين بديلة لكسب العيش لمن لا يملك الأرض ومصادر جيدة لدخول مرتفعة. ومن المعروف أن اليهود برعوا في فن التجارة وبرز منهم تجار كبار في مدن كثيرة مثل القـاهرة وبـرلين وكييـف وصنعاء. تحسنت أوضاعهم الاقتصادية والنفسية والاجتماعية مع مرور الأيام واستطاعوا أن يشـكلوا مجتمعـات صغيرة في عدد من الدول تميزهم عن المجتمعات الأوسع التي تواجدوا بينها. ومن المهم أن التوراة التـي بـين أيديهم شكلت قاعدة حيوية في تكتلهم والإبقاء على هوية خاصة بهم. ففيها ما يؤكد على تميزهم عن غيرهم مـن الشعوب وعلى تفوقهم كشعب الله المختار الذي لا يجاريه أو يطاوله شعب آخر وعلى تحوصلهم أو تكتلهم المنغلق الذي يحافظ على قدسيتهم مما تسميه التوراة من دنس الشعوب الأخرى.

على الرغم من أن المجال أمامهم كان مفتوحا أمامهم للاختلاط الواسع مع الشعوب التـي تواجـدوا بينهـا إلا أن خلفيتهم الثقافية المحكومة أساسا بتعاليم الكتاب المقدس كانت أقوى بكثير من جذب الشعوب الأخرى. لم ينعزلـوا تماما عن الشعوب الأخرى لكنهم تمسكوا بالعناصر الثلاث المشار إليها أعلاه وهي التميز والتفوق والانغلاق. أقام رجال الدين الذين يطلق عليهم اسم الحكماء حياة دينية يهودية، وشكلت تعاليم التوراة قواعد للتعامـل الاجتمـاعي وتحديد العلاقات داخل مجتمعاتهم الصغيرة. تفاوتت نوعية العلاقات بين مجتمع وآخر واختلفت العادات والتقاليـد

نظرا لتنوع وتعدد المجتمعات التي تواجدوا فيها، إلا أن ملامح أساسية يمكن تسميتها باليهودية بقيت قائمة بخاصة فيما يتعلق بالطقوس والمناسبات الدينية وساعدت على التواصل الثقافي اليهودي في مختلف أنحاء العالم. لم يكـن بالإمكان تجنب تأثير المجتمعات التي تواجدوا فيها لكنهم كانوا حريصين على عدم الذوبان على الرغم من قرارات فردية كثيرة فضلت الذوبان على حياة الانكماش.

الاضطهاد

لم تكن حياة اليهود في أوروبا رتيبة ومستقرة وإنما شهدت توترات كثيرة وشديدة بسبب ما تعرضوا له من تنكيـل واضطهاد على أيدي الأوروبيين في مختلف مناطقهم الشرقية والغربية. مع بداية التغيير الاجتماعي والديني فـي أوروبا والابتعاد تدريجيا عن حياة الإقطاع والاستبداد الكنسي بدأت صحوة تدريجية حول العلاقـات الاجتماعيـة والاقتصادية المختلفة السائدة ورؤى حول ضرورة تغييرها. لم يكن الوعي الاجتماعي والطبقي أو الفئوي قد تبلور إبان الإقطاع ولم يكن اليهود كفئة اجتماعية قد وقعوا تحت المجهر الاجتماعي. لكنهم أصبحوا تحت الأضواء مـع محاولات خروج الأوروبيين من حياة التقليد إلى حياة التجديد.

كان على اليهود أن يدفعوا ثمن النهوض التدريجي في أوروبا إذ تم اعتبارهم من قبل البعض على أنهم أحد الفئات الاجتماعية المستفيدة اقتصاديا والتي تستغل عامة الناس. لم يكن اليهود أصلا محترمين من قبل المسيحيين الـذين اعتبروا دم المسيح معلقا بأعناق اليهود، وزادت قلة الاحترام مع هذا الاتهام بالاستغلال. حقق بعض اليهـود مـع الزمن ثروة كبيرة واستطاعوا تحقيق نجاح كبير في ميدان التجارة مما أثار بعض قطاعات المجتمع الأوسع. وقـد اتسع نطاق الانطباع هذا إلى درجة أن قصصا وروايات وأشعار أخذت تظهر حول جشع اليهود وطمعهم ونهمهم المادي. وقد كانت رواية شكسبير تاجر البندقية أشهر ما كتب حول الموضوع.

تعرض اليهود للتمييز ومختلف أنواع الاضطهاد. فمثلا فُرض عليهم البقاء ضمن قطاع معين في المدينة أو حارة معينة لا يتوسعون خارجها. وقد كانت البندقية أول من فرض هذا النظام على اليهود والذي عرف بنظام الغيتو في بداية القرن السادس عشر، وانتشر بعد ذلك إلى مختلف المدن الأوروبية. وتعرضوا إلى المعاملـة السـيئة التـي تتراوح من السباب والشتائم إلى القتل والمجازر الجماعية. تعرض الغيتو اليهودي إلى عدم أمن مستمر من قبـل الناس العاديين ومن قبل السلطات. فمثلا اعتاد الناس الاعتداء على الغيتو وعلـى أطفـال اليهـود وملاحقـتهم، واعتادت السلطات فرض تقييدات مستمرة على حركة اليهود وعلى تدريسـهم الـديني وعلاقـاتهم الاجتماعيـة والاقتصادية، وكذلك على اتخاذ إجراءات ضدهم مثل الاعتقال والتعذيب والقتل، الخ. هذا فضلا عـن التحـريض الذي كانت تمارسه وسائل الإعلام المختلفة ضد اليهود وحشد الرأي العام وتوليد الكراهية والأحقاد ضدهم. وقـد حاول اليهود منذ البداية الانفلات من الإجراءات القمعية ضدهم بوسائل مختلفة مثل اللجوء إلى الحكومات لتيسـير الحياة عليهم وإلغاء الغيتو أو الهجرة من أوروبا كلها. استطاع عدد من يهود هولندا الهجرة إلى أمريكا الشـمالية في نهاية القرن السابع عشر وأسسوا أول بؤرة استيطانية في نيويورك. وأيضا استطاع اليهـود الحصـول علـى

معاملة حسنة من ملوك بولندا وأسسوا في تلك البلاد ما عرف بالمركز اليهودي الإشكنازي. لعب هـذا المركـز دورا فاعلا في جمع كلمة اليهود وأصبح مركز ثقل اليهودية في أوروبا، ومنه انطلق اليهود لرفع وتيرة استيطانهم في روسيا وفي الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. هذا فضـلا عـن أن يهـود بولندا تزعموا الحركة الصهيونية وكان لهم دور ريادي في الهجرة إلى فلسطين.

تختلف وجهات نظر الأوروبيين حول الاضطهاد عن وجهات نظر اليهود. يتحدث اليهود عـن أسـباب مثـل أن الشعوب الأوروبية لا تحتمل الغرباء وتسعى دائما إلى محاصرتهم، ويضيفون بأن اليهود أنجزوا إبـداعات فـي ميادين عدة مثل التجارة والصناعة والعلم مما زاد من حقد الأوروبيين على اليهود. لم يرق للأوروبيين أن يـروا قلة من الناس الوافدين يحققون ثراء واكتشافات علمية هامة. ويتحدث بعض اليهود بأن اليهود مكـروهين حيثمـا ذهبوا لأنهم يمتازون عن باقي الأمم بأنهم أصحاب رسالة سماوية وحكمة، وأن كونهم يهود يثير بغضاء الأمم.

بينما رأى أغلب الأوروبيين أن اليهود فعلا احتكاريون ويحبون جمع المال حتى لو كـان علـى حسـاب القـيم الإنسانية، وأنهم استعلائيون يرون في أنفسهم ما يميزهم عن الأمم ويتفوقون بـه. ويـرون أن فكـرة شـعب الله المختار لا تخرج عن هذه العقدة الاستعلائية العنصرية. إنهم، حسب الأوروبيين لا يستطيعون العيش بسلام ووئام مع الشعوب الأخرى ويفضلون أن يكونوا السادة دائما بينما يبقى الآخرون عبيدا عندهم. ويعززون جـدلهم هـذا بمدى الانغلاق الذي يميز اليهود وجمود التعاليم الدينية التي يصر عليها رجال الدين. التحجر هذا لا يقـود إلـى تعايش وإنما بالتأكيد إلى توتر ينتهي إلى عنف. هذا فضلا عن القناعة الدينية بأن اليهود قتلة المسيح عليه السلام.

المسيانية: ظهرت هذه الحركة بعد طرد اليهود (السفارديم) من إسبانيا وما تعرضوا له بعد ذلك من معاناة. قالت هذه الحركة أن اليهود بحاجة إلى معجزة لإنقاذهم مما هم فيه، وأن الرب سيرسل المخلص الـذي هـو المسـيح المنتظر للقيام بذلك. وحتى يتعجل الرب بإرسال المسيح فإن على اليهود أن يكثـروا مـن الصـلوات والابتهـال والتقرب إلى الله. وقد نجم عن الحركة ظاهرة سميت بالكبلاه والتي تعني اللجوء إلى الغيبيات في تفسير الظواهر المختلفة. أنتجت الحركة في النهاية شخصا يدعى شيبتاي تسيفي الذي ادعى أنه المسيح.

الحسيدوت: آمنت هذه الحركة بأن غاية الإنسان هي التقرب إلى الذات الإلهية من خلال العمل علـى أن يكـون صديقا صالحا. ليس شرطا أن يكون المرء حاخاما يهوديا حتى يصل إلى هذه المرتبة، وليس من المهـم التعمـق بالتعاليم. استمدت هذه الحركة أهمية من خلال تحديها للمدرسة الحاخامية التقليدية ذات النفوذ والسيطرة في أوساط الناس العاديين، وبالتالي تعرضت لانتقادات وتشويه.

الهسكلاه: حركة نهضوية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر بقيادة موشي مندلسون. تعنـي الكلمـة بالعبريـة الثقافة أو الاستنارة، وعمد قائدها إلى أن تكون حركة تجديد يهودية على أسس علمانية. نادت الحركـة بالحريـة الفكرية ودعت رجال الدين اليهود إلى التخلي عن التعصب الديني والانفتاح على الثقافات المختلفة. عملت الحركة

على إثارة التفكير الحر لدى أعضائها وشجعتهم على دراسة العلوم العصرية وعلى تعريـف الآخـرين بالديانـة اليهودية ولكن بعد تنقيتها من التعاليم التلمودية التي تسئ إلى الشعوب الأخرى وترسخ تفوق اليهود. وقد تم تكفير الحركة وأبنائها من قبل الحاخامين على اعتبار أن الخروج عن التدريس الديني البحت يخالف التعاليم.

اليهودية الإصلاحية: انبثقت هذه الحركة عن الهسكلاه وركزت على الخروج من الأطر الدينية التقليدية الجامـدة. بدأت الحركة بأداء الصلوات بالألمانية ودعت إلى الانتشار في العالم لنقل التعاليم اليهودية إلى كل الشعوب.

الحركة الفكرية

ليس من السهل أن يبدأ شعب مسيرة منظمة نحو الخلاص مباشرة بعد تعرضه لمأسـاة كـالطرد مـن الـبلاد أو التشتيت والتشريد. فهناك فترة للعق الجراح والبحث عن أساسيات العيش مثل البحث عن مأوى ومصدر للطعـام. يهيم الناس فرادى وجماعات باحثين عن حلول سريعة لحاجاتهم الأولية والملحة، ومـن ثـم يبـدؤون بتحسـس الأواصر الاجتماعية وإعادة بناء النسيج الاجتماعي بقدر الإمكان وإقامة العلاقات التي يمكن أن تشكل بالنسبة لهم ركائز هوية جماعية. وإذا سارت الأمور على ما يرام وبدأت الحياة الاقتصادية والاجتماعية تستقر يتـوفر لـدى الناس الوقت للتفكير بما هو أبعد من الحاجات الأولية ويصبحون في وضع نفسي يتقبل الجـدل والنقـاش حـول المستقبل. وهذا ما يمكن أن يوفره الكتاب والمفكرون على نطاق واسع.

لا تختفي الأدبيات من تاريخ الشعوب حتى في أشد الأوقات صعوبة وحلكة. لكنها بدايـة تتميـز بالانفعـالات أو وصف الكوارث أو الحنين وما شابه ذلك. غالبا ما تكون الأدبيات ملتصقة بالماضي بادئ الأمر، وتدريجيا تتحول إلى رؤى المستقبل التي تنطوي غالبا على طروحات الخلاص. هكذا كان الأمر بالنسبة لليهود الذين ساروا بالفعل تدريجيا من الانشغال بالأمور المعيشية إلى الفكر الخلاصي ومن ثم إلى التنظيم العملي الذي وضع الفكرة موضع التطبيق. بدأت الأفكار بأشواق وحنين وتطورت إلى تنظيمات غيبية منفصلة عن الواقـع، ومـا أن أخـذ البعـد الاجتماعي بالتبلور والاستقرار على نحو معين حتى بدأ الكتاب يطرحون صيغا متصاعدة في طموحاتها. لا مجال هنا لمناقشة كل الأفكار والطروحات ويكتفى بطرح آراء بعض المفكرين اليهود الذين سبقوا الصـهيونية ومهـدوا لها.

ظهر في القرون الوسطى في مصر رجل دين يهودي اسمه موسى بن ميمون أخذ على عاتقه جمـع عـدد مـن التعاليم والاجتهادات حول التوراة. وحيث أنه كان متأثرا بأرسطو، حاول أن يصنف معلوماته على أسس عقلانية ومنطقية ووضع كتابا عنونه مشنيه هتوراه أو التوراة الثانية. تبعه رجل دين آخر من سكان صفد اسـمه يوسـف كارو. عمل هذا أيضا على تجميع الشرائع اليهودية ومن ثم اختصرها في كتاب عنونه شولحان هأروخ أو الطاولة الطويلة.

كان يهودا الكلعي السفاردي من يهود بلغاريا أول من دعا إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين وذلك في كتاب نشره عام 1839. تلاه كاتب آخر يدعى تسفي كاليشر والذي كتب كتابا بعنوان دريشات صهيون أو طلب صهيون دعا فيه إلى ضرورة اجتماع قادة اليهود للتخطيط لاستيطان ما أسماه بأرض إسرائيل. وقد تعاون مع جمعية فرنسـية لإقامة المدرسة الزراعية التي أقامها اليهود في يافا عام 1870. ظهر في تلك الفترة موشي هس الذي نشر كتبـا بعنوان روما والقدس. أشاد هس بما أسماه القومية اليهودية وقال بأن الأمم تعلمت الفكر القومي من اليهود الـذين تعاملوا مع أنفسهم على أنهم قومية منذ ظهور التعاليم الدينية اليهودية. وأضاف بأن حل المشكلة اليهودية يكمن في بعث الأمل في صفوف اليهود والعمل على إقامة دولة يهودية على أرض الأجداد. ونصح اليهود بأن يعملوا علـى تثقيف العرب والأفارقة الذين وصفهم بالقطعان والمتوحشين وأن يجعلوا القرآن والإنجيل يدوران حول التوراة.

أما ديفيد غوردون الذي كان من المثقفين غير المتزمتين فدعا عبر صحيفة كان يحررها إلى شراء الأراضي فـي فلسطين والاستيطان فيها. لم يشذ عن هذا المفكر بيرتس سمولينسكن الذي دعا إلى إقامة منظمة يهودية عالمية من أجل حل المشكلة اليهودية وذلك من خلال الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقال بأن اليهود مهددون بالإبادة حيثمـا حلوا إلا من أرض إسرائيل، وأن على اليهود أن يحيوا ثقافتهم ولغتهم. تبعه في ذلك موشي ليف ليلينبلوم الذي كان من الاندماجيين وارتجع. كتب في كتاب صغير صدر له عام 1884 بأن على اليهود أن يهاجروا إلى فلسطين التي هي أرض الأجداد كحل للمشاكل التي يلاقونها في أوروبا وحذر من الهجرة إلى أمريكا أو أي بلد آخر. وقال بأن أمام اليهود الخيارات التالية: البقاء فيما هم فيه أو التخلي عن ديانتهم أو الهجرة إلى فلسطين.

كان يهودا ليف بينسكر من أشهر الكتاب اليهود الذين برزوا بداية كمؤيدين للاندماج مع الشعوب الأخرى. كتـب بينسكر يؤيد الاندماج وقال بأنه على اليهود تعلم اللغة الروسية والعيش في أي مكان في الديار الروسية. لكنه وقع تحت صدمة مجازر عام 1882 التي تمت ضد اليهود في روسيا على إثر اغتيال القيصر فغير أفكاره وكتب كتابا شهيرا بعنوان التحرير الذاتي قال فيه أن اليهود متميزون ولا يمكن إذابتهم في الشعوب الأخـرى، وأن المشـكلة اليهودية تُحل فقط عندما يصبح اليهود مقبولين كمتساوين مع الشعوب. وتحدث عن كراهية اليهود وقال أنها عبارة عن آفة تنتقل لدى الشعوب بالوراثة ولا حل لها إلا أن يكون لليهود مكانهم الخاص الذي يمارسون حياتهم عليـه. وأعرب عن الاستعداد للقبول بأي مكان ولم يصر على فلسطين كشرط لإقامة الوطن القومي. اكتفى بالقول بـأن اليهود بحاجة إلى بلاد خاصة بهم، لكنه أصبح رئيس جمعية أحباء صهيون التي نظمت أول حملة استيطانية فـي فلسطين.

كان أليعيزر بن يهودا أشد المتحمسين للهجرة إلى فلسطين. حمل لواء التمسك باللغة العبرية وعمل على نشـرها وإقناع اليهود باستعمالها في نشاطاتهم اليومية. قال بأن اليهود قومية، وذلك يعني البلاد واللغة والثقافـة القوميـة. وعلى عكس زملائه من المفكرين، أخذ يتكلم العبرية وهاجر إلى فلسطين تحت شعار أن الفكرة لا قيمة لها إن لم يتم تطبيقها.

واضح أن الحركة الفكرية اكتسبت في الأوساط اليهودية الأوروبية زخما كبيرا في القرن التاسع عشـر وامتـدت عبر القرن العشرين. تنوعت الأفكار حول طرق حل المشكلة اليهودية المتمثلة بالاضطهاد وتعددت، لكنـه مـن الممكن تلخيصها في الاتجاهات التالية:

أولا: الاتجاه الاندماجي

طرح أصحاب هذا الاتجاه فكرة اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية والعيش فـي المجتمـع الأوسـع. أي أن يخرج اليهودي من الغيتو ويبحث لنفسه عن مكان بين الناس ويصبح فردا عاديا كما الآخرين دون تمييز. جـادل هؤلاء بأن الاندماج يلغي وجود عنوان لليهود يكون هدفا للهجوم ويتحول اليهود عموما إلى أفراد عاديين يصـعب تمييزهم أو الحقد عليهم بصورة جماعية. لكن هذا الجدل وجد معارضة شديدة من قبل رجال الدين الذين قالوا أن هذه الأفكار تذيب المجتمع اليهودي ومن المحتمل أن تلغي الديانة اليهودية برمتها.

ثانيا: الاتجاه التحرري

لم يوافق أصحاب هذا الاتجاه على الاندماج لما فيه من إلغاء للهوية والثقافة وإنما رأوا ضرورة الانفتـاح علـى المجتمع الأوسع والمشاركة في النشاطات العمة وإقامة العلاقات الاجتماعية الواسعة مع عمـوم النـاس. رأوا أن المشاركة في المناسبات العامة ضرورية كما أن فتح الأبواب اليهودية أمام المسيحيين للتفاعل الاجتماعي حيـوي أيضا لما في ذلك من تأليف للقلوب وإزالة انطباعات سلبية مسبقة. لكن هذا الطرح لم يحظ أيضا بموافقة رجـال الدين خوفا على انبهار البعض بالمجتمع الأوسع مما قد يؤدي إلى رحيل متزايد عن المجتمـع اليهـودي وإلـى زيجات متبادلة تتناقض مع المبادئ اليهودية.

ثالثا: الاتجاه القومي

قال أصحاب هذا التيار أن الحل الوحيد أمام اليهود هو البحث عن وطن قومي يكون لهم بعيـدا عـن القوميـات الأخرى. وقد حاز هذا على موافقة وتشجيع رجال الدين الذين حرصوا على التأكيد بأن فلسـطين هـي الموقـع المطلوب. انصب اهتمام كبير على هذا الاتجاه والذي أخذ يكتسب قوة مع مرور الأيام. تبنى العديد مـن الكتـاب والمفكرين هذا الاتجاه وساهموا في بناء رأي عام في أوساط اليهود يتبنى الفكرة. علما أن كتابـا مسـيحيين مـن إنكلترا وفرنسا وغيرهما تبنوا الفكرة أيضا وروجوا لها.

أسباب الهجرة اليهودية إلى فلسطين:

اختار أغلب اليهود من الناس العاديين أو من صناع الرأي فلسطين كوطن قومي مرشح لهم. شذ بعضهم عن هذا التوجه إلا أنهم لم يشكلوا تيارا قويا يؤثر على الرؤية العامة. لماذا فلسطين؟ فيما يلي تلخيص لأهم الأسباب:

أولا: يعتقد أغلب اليهود أنهم يرتبطون تاريخيا ودينيا بأرض فلسطين التاريخية (وليس الانتدابية القائمة حاليا) التي يعتبرونها الأرض المقدسة، أرض الآباء والأجداد التي وعدها الرب لموسى عليه السلام. تركز التوراة التي بين أيديهم على أهمية هذه الأرض بالنسبة لليهودي وتقول بأن اليهودي الجيد يسعى دائما أن يعيش في الأرض المقدسة وأن يموت فيها، وأن كل يهودي يموت خارجها إنما لم يحي حياة يهودية قويمة. ما ينطبق على الأرض المقدسة من تبجيل وتمجيد ينطبق وبصورة أكثر حدة على أور سالم، القدس. وهذا بالتحديد ما يفسر هجرة بعض اليهود عبر القرون على أسس فردية إلى فلسطين. بلغ هؤلاء درجة كبيرة من التدين بحيث لم يطيقوا الحياة بعيدة عن الأرض المقدسة. وقد زاد عدد هؤلاء إلى درجة أنهم شكلوا بؤرا شبه استيطانية في مدن مثل القدس وصفد ويافا.

يركز التدريس الديني اليهودي كثيرا على الأرض المقدسة بحيث أن الالتصاق بها عبارة عن جزء من صلب العقيدة ومن جوهر الثقافة. ينشأ اليهودي على تعاليم كثيرة تزرع فيه حب الأرض المقدسة والشوق إليها والإقامة فيها. إنها تعمل على ترسيخ فكرة ملكيته لها، وحسب النبوءات الواردة فيها تولد لديه القناعة بأنه سيعود إليها يوما. الأرض ملك لليهود، حسب التعاليم اليهودية، وأن المقيمين فيها عبر القرون ليسوا إلا مجرد أمناء عليها ومستثمرين وأن عليهم تسليمها لأصحابها حينما يعودون. هذه تعاليم تولد قناعات تجعل من اليهودي بخاصة المتدين على علاقة ولو روحية مع الأرض المقدسة. ليس شرطا أن تكون هذه القناعات نشطة على الدوام في تحريك الهمم نحو التنفيذ، لكنها تبقى عنصرا هاما وأساسيا في دعم عناصر أخرى قد تطرأ.

ثانيا: الاضطهاد :

الاضطهاد عبارة عن عامل قوي يدفع المرء باتجاه البحث عن حلول لما يعترض طريقه ويسمم عليه حياته. وعلى الرغم من قوة التثقيف الديني لدى اليهود حول الأرض المقدسة، إلا أن الاضطهاد يعتبر العامل الأقوى في المرحلة التاريخية التي تعنينا في دفع اليهود نحو الهجرة إلى فلسطين. فإذا كان العامل الديني كامنا أو محددا لأبعاد ثقافية أتى الاضطهاد ليخرجه من مكمنه أو ليفعله عمليا. حياة الاضطهاد لا تطاق ودفعت اليهود نحو التفكير بالوطن القومي أو الملجأ فكانت الأرض المقدسة أول قطعة أرض تقفز إلى الأذهان.

ثالثا: الاستعمار

نشطت حركة الاستعمار في تلك الفترة وشكلت بعدا تنافسيا بين الدول الأوروبية عموما. لم تكن فكرة استعمار بلاد في آسيا وأفريقيا عارا في تلك الفترة بل كانت مصدر فخار ومباهاة بين الدول ودليلا على العظمة والقوة. غزت الدول الأوروبية العديد من المناطق وطوعت أهلها ونهبت ثرواتها مما انعكس إيجابا على الأوضاع الاقتصادية. وحيث أن النهم الاستعماري كان سائدا وجزءا من ثقافة محببة فإن اليهود لم يجدوا ما يجعلهم يترددون في طلب السيطرة على بلاد بعيدة. إنه معترك استعماري وجد اليهود أنه من المهم الاستفادة منه.

رابعا: حركة القومية

انتعشت الحركة القومية في أوروبا عبر قرون إلى درجة أن دولة القومية أخذت تحتل موقعا مقدسا في التفكير السياسي الأوروبي. إقامة دولة القومية أصبحت غاية المنى على المستويين الفردي والجماعي، وأصبحت درجة الانتماء تقاس بدرجة الإصرار على إقامة الدولة وعلى رفعة القومية على القوميات الأخرى. بالنسبة لليهود سادت المقولة بأنه إذا كان للإنكليز إنكلترا وللفرنساويين فرنسا فيجب أن يكون لليهود يهودا. وإذا كانت أوروبا ذات قوميات فإن اليهود عبارة عن قومية يعيشون على أراض غريبة. لتكن لكل قومية أرضها الخاصة، وبالتالي ليكن ليعد اليهود إلى أرض الأجداد. وبالطبع لقي هذا الطرح أذنا صاغية لدى الأوروبيين الذين رغبوا أيضا في التخلص من اليهود وتصدير مشكلتهم إلى بلاد أخرى.

خامسا: الثورة الفرنسية

تأثر اليهود بمبادئ الثورة الفرنسية واستفادوا منها لحل مشاكلهم الخاصة. أتت الثورة بمبادئ المساواة والحرية والإخاء والتي تشكل قواعد أساسية في بحث اليهود عن الخلاص من الاضطهاد. ولهذا أيدوا الثورة ووظفوا طاقاتهم في سبيل الترويج لما تطرحه. أضف إلى ذلك أن نابليون نفسه تحدث عن مأساة اليهود ودعا إلى عودتهم إلى الأرض المقدسة تحقيقا لنبوءة العهد القديم (التوراة) وطمعا في مساعدته في تحقيق طموحاته الاستعمارية في الشرق.

سادسا: تقسيم بولندا

أدى تقسيم بولندا عام 1795 إلى خضوع عدد كبير من اليهود لروسيا القيصرية. قضى هذا الحدث على ما كان يتمتع به اليهود من حرية في الحركة والعمل وحشد الطاقات اليهودية في بولندا، وحول اليهود إلى حكم طغاة أدت سياساتهم إلى مجازر مرعبة قام بها الروس ضد التجمعات اليهودية.

هجرة أحباء صهيون

ولدت الحركة الأدبية والفكرية خطوات عملية. هكذا هو الأمر في أغلب المجتمعات والدول. تؤثر الأدبيات المختلفة في الرأي العام خاصة عندما تكون مركزة، وحين اختمار الأفكار الواردة فيها تتبلور جهود عملية نحو التطبيق.

اغتيل قيصر روسيا عام 1881 من قبل خمسة أشخاص من بينهم فتاة يهودية. انتبه الروس تماما إلى هذه الفتاة فأعملوا السيوف في رقاب اليهود. هوجمت الحارات اليهودية في عدد من المدن الروسية وقتل عدد كبير من اليهود. نتيجة لذلك قررت جمعية أحباء صهيون التي كانت تعمل في روسيا من أجل الترويج لفكرة العودة إلى أرض الأجداد أن تبادر في الهجرة إلى فلسطين. قالت الجمعية بأن روسيا غير آمنة ومن الأفضل مغادرتها إلى فلسطين على الرغم من الصعوبات التي يمكن أن تواجه المهاجرين. وأضافت بأنه لا يكفي الاستمرار في الحديث

عن الوطن القومي أو الهجرة بل لا بد من وضع الفكرة موضع التطبيق وأن الوقت لذلك قد حـان. وعليـه فقـد نظمت عام 1882 أول هجرة جماعية إلى فلسطين منذ أن طرد الرومان اليهود، بفارق زمني مقداره 1747سنة.

بدأ مهاجرو أحباء صهيون يفدون إلى فلسطين تباعا وأخذوا ببناء البيوت والبحث عن أراض زراعية تـوفر لهـم مصدر الرزق.
بالإضافة إلى مستوطنة بتاح تكفا التي أقيمت عام 1878 من قبل يهود القدس على أراضي قرية ملبس أقام أحباء صهيون في الأعوام 1882-1884 المستوطنات التالية: ريشون لتسيون على أراضي عيون قـارة، وروش بيتـه على أراضي الجاعونة، وزخرون يعقوب على أراضي زمارين، يسود همعليه على أراضي الحولة، نس تسـيونه على أراضي وادي حنين، مزكيرت باتيه على أراضي الرملة، وغديرة . واستمر بناء المستوطنات حتـى يومنـا هذا.

من أين أتى اليهود بالأرض لبناء المستوطنات وتطوير المزارع؟ يتمثل المصدر الأول في الدولة العثمانيـة التـي كانت تلجأ عادة إلى بيع أراضي الفلاحين في المناطق الخاضعة لسيطرتها بما فيها الشام في المزاد العلني وذلـك بسبب عدم وفائهم بالضرائب المفروضة عليهم. كانت تستولي على الأرض وتطرد الفلاحين وتبحث عن مشترين. أما المصدر الثاني فكان السفراء والقناصل الأجانب ولكن من خلال القانون العثماني الذي سمح بتمليك الممثليـات الأجنبية أراض في الدولة العثمانية. كان يقوم قناصل الدول الأجنبية في القدس مثل ألمانيـا وفرنسـا وبريطانيـا بشراء الأراضي من الفلاحين الفلسطينيين وبالأخص من الإقطاعيين أو كبار الملاك ويعطوها لليهود بعـد ذلـك. ويقتضي التنويه هنا إلى أن الأوروبيين كانوا يقومون بهذه الأعمال والتي تقود إلى إنشاء الوطن القومي لليهود قبل ظهور بلفور. على سبيل الأمثلة، قام قنصل بريطانيا الحاخام امزليغ بشراء 3340 دونم وحولها لليهـود لإقامـة مستوطنة ريشون ليتسيون، أما إميل فرانك الذي كان يعمل نائب قنصل ألمانيا والنمسا في الإسكندرية عمل علـى تحويل 6000 دونم من أراضي الجاعونة إلى اليهود، وقام القنصل الألماني بتحويل 142 دونم في منطقة يافا، أما قنصل فرنسا في عكا ونائبه في صفد فشاركا بتحويل مساحة مقدارها 2500 دونم قرب الحولة. تبين الخريطة رقم (4) المستعمرات التي أقامتها أحباء صهيون قبل ظهور الحركة الصهيونية وبعد ظهورها بقليل.

أما المصدر الثالث في الحصول على الأراضي كان متمثلا في بريطاني وبعض كبار الملاك والقيـادات العائليـة الفلسطينية كما سنرى فيما بعد.

كيف كان يدخل اليهود إلى فلسطين؟ كانت تسمح تركيا عموما بدخول اليهود إلى أراضيها غالبا بسبب التعـاطف معهم إثر طردهم من إسبانيا مع المسلمين عام 1492. لكن الحكومة العثمانية أخذت تشدد على منع دخول اليهود إلى فلسطين بالذات بعدما استشعرت الخطر، إلا أن تشديدها كان عديم الفائدة لسـببين رئيسـين: تفشـي الفسـاد الإداري والرشوة كانا يسهلان دخول اليهود، وكذلك ضغوط الدول الأجنبية. كثيرا ما كان يكذب مسئولو الشرطة العثمانيين في بياناتهم لقاء رشاوى كانوا يتلقونها، وكثيرا ما كان يتدخل الأجانب لتخفيف الرقابة على المهاجرين.

حصل مثلا أن تدخل أوسكار شتراوس سفير الولايات المتحدة لإلغاء إجراءات تشديدية ولعزل والي القدس الـذي كان يناصب الهجرة اليهودية العداء.

أما بالنسبة للأموال اللازمة لتغطية تكاليف الهجرة والمعيشة والاستثمار فكان يتم تغطيتها من أمـوال الجمعيـات اليهودية في أوروبا ومن أموال التبرعات. وقد حصل أحباء صهيون على أموال من الثري الفرنسي روتشيلد الذي كان مهتما بالوطن القومي وباستثمار أموال في زراعة العنب في فلسطين لتغذية مصانع خمور كان يملكهـا فـي فرنسا.

لكن حملة أحباء صهيون لم تستمر طويلا بسبب تعرضها لانتقادات شديدة من قبل عدد من القيادات اليهودية مـن مختلف الأوساط. تركزت الانتقادات على أن اليهود يهاجرون إلى بلاد لا تتوفر فيها أسباب الأمن على الصعيدين العسكري والاقتصادي مما يعرض حياة المهاجرين للخطر. لا يوجد مصدر رزق آمن في فلسطين، ولا توجد قوة يمكن أن تحمي اليهود من الفلسطينيين إذا شعروا بأن اليهود عبارة عن خطر يهددهم. ولهذا رأى هؤلاء ضرورة تأجيل الهجرة لغاية الحصول على ما يضمن لليهود هجرة آمنة واستقرارا وأمنا. أما جدلية أحباء صهيون فنـادت بضرورة خلق أمر واقع في فلسطين وذلك لن يتم إلا بالهجرة. لقد اعترفوا بالمخاطر المحيطة بالعمل لكـنهم رأوا أن البقاء في روسيا يمثل خطرا أكبر وأن إقامة الوطن القومي تتطلب التضحيات. تغلب التيار المعارض فتوقفـت هذه الهجرة لتسلم نفسها للحركة الصهيونية.

المنظمة الصهيونية العالمية

ثيودور هرتسل هو مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية. ولد في بودابست عام 1860، ودرس الحقوق في جامعة فينا. عمل فترة قصيرة في المحاماة ثم تركها ليعمل كاتبا للقصص والمسرحيات ثم في ميدان الصـحافة. عمـل مراسلا لإحدى الصحف المشهورة في فينا وارتقى ليصبح رئيس تحرير الصفحة الأدبية فيها. كان يهوديا مندمجا ولم تكن لديه علاقة مع الحياة اليهودية التقليدية. عاش حياته بعيدا عن الغيتو ولم يخبر معاناة اليهـود أو حيـاتهم الدينية. ويقول البعض أنه لم يمارس الصلاة اليهودية في حياته ووجد نفسه محرجـا أمـام الحاخامـات الـذين اصطحبوه للصلاة إبان مؤتمر بازل. لقد اكتشفوا أنه لا يعرف من العبرية كلمات تمكنه من الصلاة. وهذا ينسحب على معرفته بالثقافة اليهودية التي كان يتشكك بوجودها. لكنه كان رجل علاقات عامة وصاحب قدرة كبيرة علـى الحركة وإقامة الصداقات بخاصة في أوساط الفئات الثرية. سهلت عليه هذه القدرة على إقامة العلاقات الاجتماعية والتي تعتبر ضرورية في كثير من الأحيان لتحقيق إنجازات سياسية.

إلا أن الدم الصهيوني أخذ يجري في عروق هرتسل عل إثر محاكمة الضابط الفرنساوي دريفـوس الـذي اتهـم بخيانة فرنسا لصالح ألمانيا. شهد هرتسل حملة التحريض ضد اليهود على مدى فترة المحاكمة التي استمرت قرابة العام. تم الحكم على دريفوس بالحبس ليتبين فيما بعد أنه كان بريئا. هنا بدأ يعي هرتسـل مـا وصـفه بخطـر اللاسامية وتآمر الحكومات على اليهود. وقال بأن الحكومات الأوروبية هي التي أغرقت اليهود بالمـال وحاولـت إبعادهم عن القيم الإنسانية وعملت على استعمالهم كأدوات لتحويل أنظار الشعوب عما تقترفه من أعمال.

أدى تحوله الفكري إلى كتابة كتاب بعنوان **الدولة اليهودية**. أورد في الكتاب أفكارا عدة كان أهمها الـدعوة إلـى إقامة دولة يهودية على أية قطعة أرض تُعطى لليهود. طرح الأرجنتين وفلسطين كمواقع محتملـة إلا أنـه تـرك الباب مفتوحا. وقال بأن مشكلة اليهود قومية وليست اجتماعية، وأن أعداء اليهود ساهموا من حيث لا يدرون فـي بعث الفكر القومي لدى اليهود. وتطرق إلى فلسطين حيث قال بأنه إذا أقيمت الدولة هناك فسيعمل اليهـود علـى حماية أوروبا من الذين وصفهم بالمتوحشين أو البربريين في آسيا والتي ستضطر هي أيضا إلـى ضـمان أمـن ووجود اليهود.

من الناحية التنظيمية، طرح هرتسل ضرورة إقامة جمعية اليهود وهي عبارة عن جسم سياسي واجتماعي يمثـل اليهود، وإقامة شركة اليهود وهي الهيئة التي تقوم على تنفيذ ما تتخذه الجمعية من قرارات. تعمل الجمعية علـى الحصول على الأرض المطلوبة من أجل إقامة الدولة وتقوم الشركة بالاستملاك والتطوير. وقد توقع في كتابه أن يكون اليهود الفقراء طلائع البناء، ولم يعول كثيرا على الأثرياء. ومن الجدير ذكره أنه عاد وكتب متـأخرا فـي رواية له أن فلسطين هي المكان الأنسب لإقامة الدولة.

تابع هرتسل كتابه وطفق يجوب البلاد الأوروبية لحشد الطاقات نحو عقد مؤتمر لتشكيل التنظيم الـلازم لإقامـة الوطن القومي. وعلى الرغم من معارضات وإحباطات تعرض لها إلا أنه قرر توجيه دعوات لحضور المـؤتمر. وبالفعل عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في سويسرا في الفترة 29-31 آب (أغسطس) من عـام 1897. كثيرون هم الذين لم يلبوا الدعوة لكن الحضور كان كافيا لإنجاح المؤتمر. تكون على إثر المداولات مـا أصـبح يعرف ببرنامج بازل أو أهداف الحركة الصهيونية والتي تشمل:

1- الإعلان عن المنظمة الصهيونية العالمية وأن هدفها إقامة وطن قومي لليهود فـي أرض إسـرائيل وأن تسعى إلى الحصول على الاعتراف به وفق القانون العام.
2- استيطان أرض إسرائيل بالعمال والفلاحين والحرفيين الذين يقومون بتطويرها بشكل منظم.
3- بث الوعي القومي لدى اليهود وتقوية مشاعر الانتماء والهوية.
4- تنظيم اليهود في البلاد الأوروبية وذلك مع مراعاة قوانين كل بلد.
5- فتح باب العضوية في المنظمة الصهيونية مع فرض اشتراك مالي على كل عضو.
6- إنشاء الصناديق المالية والضرورية لتمويل نشاطات المنظمة في البلاد الأوروبية وفي أرض إسرائيل.

7- السعي لدى الحكومات المعنية للحصول على موافقتها على هجرة اليهود إلى فلسطين أو دعمها لهذا التوجه.

هذه النقطة الأخيرة هامة لأن المؤتمرين رأوا ألا يكرروا تجربة أحباء صهيون في الهجرة دون أن يكون هناك ضمانات أمنية اقتصادية وعسكرية. أراد الصهاينة أن يبحثوا عن الدولة التي يمكن أن تعطيهم الحق القانوني في الهجرة وتكون بالتالي مسؤولة عن توفير الأمن. ومن حيث أن فلسطين كانت جزءا من الدولة العثمانية، فإنه أنيط بهرتسل مهمة الاتصال بالسلطان العثماني عسى أن يجد ضالته عنده.

انهمكت المنظمة الصهيونية بعد ذلك بوضع هيكلها التنظيمي وتوزيع المسؤوليات. أي عملت على تشكيا اللجان والمجالس التي تشرف على مختلف الشؤون مثل سجلات الأعضاء ومتابعة تسديد الاشتراكات والإشراف على الصناديق والإعداد للهجرة. أما هرتسل فوجه جهوده نحو السلطان العثماني الذي استقبله بالفعل بناء على توصية من مستشار ألمانيا. رفض السلطان العثماني طلب هرتسل بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين والإقامة فيها وكان رده بأن فلسطين أرض إسلامية ولا يملك أحد حق التصرف بها. وبعد أن ألح هرتسل في لقاء آخر أصدر السلطان أمرا بمنع اليهود من الإقامة في فلسطين لأكثر من ثلاثة أشهر وأن على كل يهودي يؤم البلاد أن يودع جواز سفره لدى مفوض الداخلية أو الشرطة.

كان موقف السلطان حازما، لكنه حقيقة لم يكن من الناحية العملية ملزما وذلك لسببين رئيسين: ضعف الدولة والفساد المستشري في صفوفها. كانت الدولة العثمانية ضعيفة جدا ولم تكن تملك من الإمكانات لمراقبة الشواطئ ومنع التسلل إلى فلسطين، ولم يكن لديها طاقما مدربا وكافيا لملاحقة المتسللين. ومن ناحية أخرى، ساعدت الرشوة على دخول اليهود بيسر وسهولة. كان الفقر واسع الانتشار وكانت الأمانة في أداء الواجب شبه غائبة. استغل اليهود ظاهرة الفساد، وأبدع شرطة السلطان في رفع التقارير والبيانات الكاذبة. ولهذا لم تتوقف الهجرة إلى فلسطين، ولم يتوقف بناء المستعمرات. تبين الخريطة رقم (5) المستعمرات التي تمت إقامتها مبكرا من قبل الحركة الصهيونية.

التكتلات داخل المنظمة الصهيونية

ثار جدل منذ البدء بين صهيونيين أصروا على ضرورة هجرة اليهود تحت مظلة قانونية بغرض حمايتهم وبين آخرين قالوا أن الوطن القومي لا يقوم إلا بفرض الأمر الواقع، أي بالهجرة إلى فلسطين حتى لو لازمها بعض المخاطر. عرف الفريق الأول بالصهيونيين السياسيين الباحثين عن مخرج سياسي للطموح اليهودي وعرف الآخر بالصهيونيين العمليين. تزعم هرتسل الفريق الأول وعمل على كبح الهجرة إلى فلسطين. نجح إلى حد ما إلا أن الصهيونيين العمليين استمروا في تشجيع الهجرة وبناء المستوطنات.

بسبب فشل هرتسل وفشل من تبعه في الحصول على مخرج سياسي أو قانوني للهجرة أخذت الصهيونية العمليـة تكتسب قوة تدريجية بخاصة بعد وفاة هرتسل عام 1904. تصاعد نفوذ العمليين إلى أن فـازوا فـي الانتخابـات الداخلية للمنظمة الصهيونية وسيطروا على اللجنة التنفيذية عام 1910.

ظهرت تكتلات أخرى داخل المنظمة الصهيونية وذلك بسبب تنوع الخلفيات للمنضمين إليها. فمثلا وجـد بعـض الأعضاء أنه إذا لم تتيسر فلسطين فإنه من الممكن القبول بأوغندا كوطن قومي لليهود. وفعلا طرحت هذه الفكـرة للتصويت في المؤتمر الصهيوني السادس. حاز المؤيدون على الأغلبية إلا أنه نجم عن ذلك انشقاق قاده المتدينون ما دفع هرتسل إلى التراجع. وظهر أيضا كتلة المتدينين التي عملت باستمرار على سحب المنظمـة نحـو الفكـر الديني التقليدي. وظهرت أيضا كتلة الاشتراكيين الذين كانوا يؤمنون في الفكرة الاشتراكية ويعملون على التخلص من الرأسمالية. وكتلة أخرى ظهرت باسم الشباب الذين كانوا يرون في الديمقراطية الأسلوب الأمثل فـي إقامـة العلاقات واتخاذ القرارات. وهكذا ظهرت تيارات أو جماعات متعددة داخل المنظمـة الصـهيونية وذلـك تبعـا للتطورات والاحتياجات والاهتمامات. لكن بقي التيار العلماني العملي الأكثر قوة والأقدر على قيادة المنظمة.